ومضات من نشيد الأنشاد
سِفر المحبة

✠✝✠

سِفْر النشيد هو لغة المحبة بين النفس المُدَرَّبة وعريسها، لكنه ليس هو لسان حال المؤمن في بداية الإيمان؛ عندما يكون في حاجة ماسَّة لفَهم أركان بداءة أقوال الله، ولإدراكه لغفران خطاياه، ولفهم حياة التوبة. فرغم أهمية هذه البركات، فسِفْر النشيد لا يتطرَّق لها إلَّا قليلًا.

لقد كانت ذات يوم قاسية، وعُنقُها عَضَلًا من حديد، وجَبهتُها نُحاسًا (انظر: إش ٤٨: ٤). ولكن ما أعظم التغيير الذي فعلته النعمة! فها هو الرب يرى جمال «خَدُّكِ كَفِلْقَةِ رُمَّانَةٍ»، وإذا ما وارت هي هذا الجمال «تَحْتَ نَقَابِهَا» (نش ٤: ٣)، ففي ذلك إشارة إلى الحياء وتخصيص حُبِّها للعريس وحده. فحياتها الباطنية هي لمدح ولمسرَّة قلب السيد دون سواه، ولإشباع قلب الرب لا لإظهار ذاتها أو الافتخار بها، فهو "يُسرُّ بالحق في الباطن" (مز ٥١: ٦). أمَّا عندما تكون العروس في حِجال الملك، وفي «سِتْرِ الْمَعَاقِلِ»، مكان الشركة السِّريَّة، إذ صار لها حقُّ الاقتراب إلى الأقداس أي الدخول في حضرته، تُرى بغير النقاب، بوجهٍ مكشوف، فيرى الرب جماله المُنعكس على وجه عروسه (انظر: حز ١٦: ١٤) "تحت النقاب"، وأمَّا في الخارج وأمام الغير فلابدَّ من النقاب. إنَّه يراها الآن طاهرة كالحمامة (نش ٢: ١٤؛ مت ١٠: ١٦)، ولا عيب فيها (أف ١: ٤)، بعد أنْ كانت ذات يومٍ «كَحَمَامَةٍ رَعْنَاءَ» (هو ٧: ١١).

«فِي اللَّيْلِ عَلَى فِرَاشِي طَلَبْتُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي. طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ. إِنِّي أَقُومُ وَأَطُوفُ فِي الْمَدِينَةِ، فِي الأَسْوَاقِ وَفِي الشَّوَارِعِ، أَطْلُبُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي. طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ» (نش ٣: ١-٢). إنَّ العروس لم تجد بُغيتها. ألعلَّها أخطأت في طلب الشخص؟ كلَّا، لكنَّها طلبَته

بطريقةٍ خاطئة. قالت: «عَلَى فِرَاشِي ... طَلَبْتُهُ»، طَلَبَتْه ولكن أرادت أن تحتفظ بكسلها. فإذ طلَبَتْه على الفراش، لم يُعلِن نفسه لها. تطلبُه في مكانٍ خاطئ، إنه لا يوجد في الشوارع أو في ساحات هذا العالم وأسواقه. وماذا قدَّم العالم للعريس سوى البغضة والصليب؟

تطلبُه بين أُناسٍ ليسوا ذوي اختصاص، فهي تسأل عنه «الْحَرَسُ الطَّائِفُ فِي الْمَدِينَةِ» (ع ٣). إنَّ عمل الحَرَس الطائف هو تتميم الأحكام وحِفْظ النظام وتوفير الأمان، لكنهم لا يقدرون أن يجلبوا العونَ في طلبِ المحبوب. فعندما تكون القضية ظُلمًا أو خُبثًا رديًّا، فإن "غاليون" هذا العالم يتعامل معها؛ أمَّا إذا كانت المسألة «محبة» و«يسوع» فهي في نظر العالم مجرد "مَسْأَلَةٍ عَنْ كَلِمَةٍ، وَأَسْمَاءٍ"، فالعالم «لا يشاء أن يكون قاضيًا لهذه الأمور» (انظر: أع ١٨: ١٤-١٥).

لكن العروس تَغلَّبتْ في النهاية على كل عثرة وصعوبة أمامها: السرير، والمدينة، والحرس الطائف. فلم تتجاوزهم إلَّا قليلًا حتى وجدَت محبوبها، ولمَّا وجَدَته أمسكَتْه ولم تُرْخِهِ، وتشبَّثت به ولم تُطلِقْه (قارن: تكوين ٣٢: ٢٦).

في (نش٣: ٧-١١) تُرى العروس، لا كما في مطلع الأصحاح مسْتلقيةً على فراشها تطلب مَنْ تحبُّه نفسها فلا تجده، بل أمام تخت سليمان أي مُتَّكئة. إن التخت هو مكان راحة لسليمان، وهو «... مَرْصُوفًا مَحَبَّةً مِنْ بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ»؛ إنه مصدر راحة لهُنَّ وشركة وسط مخاوف الليل ومخاطره. ففي ليل غيابه، كثيرًا ما تتحرَّك الضباع والذئاب، الأسود والكلاب، والأفاعي أيضًا.

«كُلُّهُمْ قَابِضُونَ سُيُوفًا وَمُتَعَلِّمُونَ الْحَرْبَ. كُلُّ رَجُلٍ سَيْفُهُ عَلَى فَخْذِهِ مِنْ هَوْلِ اللَّيْلِ» (نش ٣: ٧-١١). في أيام نحميا كان الرجال باليد الواحدة يعملون العمل، وبالأخرى يمسكون السلاح، إذ كانوا مُحاطين بالأعداء من كل جانب (انظر: نح ٤: ١٧)؛ هكذا نحن، فالعالم كله وُضِعَ في الشرير (١يو ٥: ١٩)، والشيطان عدوُّنا كأسدٍ زائر يجول مُلتمسًا مَنْ يبتلعه (١بط ٥: ٨)، لكن المؤمنين «تَنْوِيهَاتُ اللهِ (تسبيح الله) فِي أَفْوَاهِهِم، وَسَيْفٌ ذُو حَدَّيْنِ فِي يَدِهِم» (مز ١٤٩: ٦).

مكتوبٌ عن المؤمنين أنهم «وَرَاءَ الرَّبِّ يَمْشُونَ. كَأَسَدٍ يُزَمْجِرُ» (هو ١١: ١٠) كلمات

تقفز منها دقَّات الانتصار النابضة بالقوة، فها الملكُ كأسدٍ يُزمجِر، داعيًا البنين للسير في موْكِب الأسد. يسيرون وراءَه ويكون هو «كَأَسَدٍ يُزَمْجِرُ»، لكن هل سيكون في أعينهم كالأسد أم كالظبي وغُفرِ الأيائلِ (انظر: نش ٢: ٩، ١٧)؟ الظبي بالعربية تقابلها كلمة عبرية بنفس النطق تقريبًا: צְבִי، وتعني "جمال – مجد – غزال". فيظل التساؤل: أهو شبيه بالأسد أم بالظبي؟ فبالنسبة لأعدائها هو كالأسد، وبالنسبة لقَلْبِها هو الرَّجُل الرقيق، مُرهَفُ الحسِّ والودود. أمَّا هي فكامرأة تسيرُ في كَنَف رَجُلها فتراه أسدًا في وجه كل ما يقابلها مِن التحديات والعراقيل، بينما تستعذبُهُ كالظبي لصدق محبته وَتَسَلُّقه العوائق بغية الوصول لقلبها.

فهذا الأسد سوف نسير وراءه بصفته عريسنا السماوي بل ومُنتَظَر قلوبنا، سيتحدَّى كلَّ أخطار وعوائق البريَّة التي نجوبُها، بل وسيفتخر على كلِّ محاولات العِدَى لتفشيلنا وكأنَّ الرجاء ضاع أدراج الرياح، وسيُبَوِّق لنا، فيُقام الأموات عديمي فساد ونحن الأحياء نتغيَّر.

ويُختم هذا المقطع بدعوة بنات أورشليم لكي يخرُجْنَ، لينظُرْنَ الملك سليمان بالتاج الذي توَّجته به أُمه يوم عُرْسه ويوم فرح قلبه (انظر: نش ٣: ٧-١١). فهو تاج خضوع شعبه له وترحيبهم به، وتقديرهم وتسبيحهم له ولا سيما عندما يجمعنا الروح القدس للسجود والعبادة لشخصه، فنُكْرمه في عالم لم يُقدِّم له سوى المذود في البداية والصليب في النهاية، وعلى طول الطريق بينهما لم يكن له أين يُسْنِد رأسه!

«حَبِيبِي نَزَلَ إِلَى جَنَّتِهِ، إِلَى خَمَائِلِ الطِّيبِ، لِيَرْعَى فِي الْجَنَّاتِ، وَيَجْمَعَ السَّوْسَنَ» (نش ٦: ٢). ليس للرب في كل الأرض سوى جنة واحدة، هي كنيسته التي اقتناها بدمه، والتي تتكون من خاصته الذين في العالم، أي المؤمنين الأتقياء الذين بالنسبة للحبيب هم "خمائل الطِّيب". وسجودهم في محضره هو عطرٌ ينعش قلبه.

«كَالسَّوْسَنَةِ بَيْنَ الشَّوْكِ كَذلِكَ حَبِيبَتِي بَيْنَ الْبَنَاتِ» (نش ٢: ٢). إن كان العالم حقلًا مليئًا بالشوك، أعني الأشرار، الذين يقول داود عنهم: «وَلكِنَّ بَنِي بَلِيَّعَالَ جَمِيعَهُمْ كَشَوْكٍ» (٢صم ٢٣: ٦). فالسوسن هم المؤمنون، موضوع عناية الرب، الذين قيل عنهم: «سَوْسَنَةُ الأَوْدِيَةِ» (نش ٢: ١). لقد نزل الراعي إلى جنته ليرعى بين السوسن، ليحضر وسط اجتماعات القديسين، ويتولَّى بنفسه إطعامهم. إنه يرتاح وسط اجتماعات

القديسين: «هذِهِ هِيَ رَاحَتِي ... هُهُنَا أَسْكُنُ لأَنِّي اشْتَهَيْتُهَا» (مز ١٣٢: ١٤). إنَّ جَمْع السَّوسن من حول الراعي لا ينتج عنه ملء للبطن، بل لذَّة للقلب. وكم يجد الرب شِبعًا لنفسه (انظر: إش ٥٣: ١١) عندما يجد من حوله أشخاصًا مختلفين عن باقي الناس، وسرورهم مجده.

أخي، هل اجتماعاتنا دائمًا جنَّات للرب؟ هل يرى في اجتماعاتنا ثمرًا شهيًّا ونفيسًا، فيشتمَّ عبير سجودنا ويبتهج؟ هل نقول له: «عِنْد أَبْوَابِنَا كُلُّ النَّفَائِسِ مِنْ جَدِيدَةٍ وَقَدِيمَةٍ، ذَخَرْتُهَا لَكَ يَا حَبِيبِي» (نش ٧: ١٣)، فيُجيبَنا: «قَدْ دَخَلْتُ جَنَّتِي ... قَطَفْتُ ... أَكَلْتُ ... شَرِبْتُ» (نش ٥: ١)؟ أم يجد الذَّات عاملة، والجسد والأنين والتذمُّر والحسد والأنانية، فهل اجتماعات كهذه تكون جنَّة بالنسبة له؟ أيجد سروره في مثل هذه الحالة؟

إنَّ ذاك الذي تكلَّلت رأسه بالأشواك لأجلنا، يستحقُّ أن تكون اجتماعاتُنا حولَه لإكرامه، جنَّات للذَّته وشبع قلبِه. وقريبًا سيجمعنا الاجتماع الأبدي، في احتفالٍ رائع مهيب، سيجمع الرب كل مَنْ له في هذا العالم، في ما يُسمِّيه الرسول بولس: «اجْتِمَاعَنَا إِلَيْهِ» (٢تس ٢: ١).

أخيرًا، لقد ارتقى مستوى العروس، فما عاد يشْغَلُها ما هو لها، بل ما هو له. فهي هنا لم تَقُل: «حَبِيبِي لِي وَأَنَا لَهُ» (نش ٢: ١٦)؛ بل رُتِّبت العبارة ترتيبًا أفضل فقالت: «أَنَا لِحَبِيبِي وَحَبِيبِي لِي» (نش ٦: ٣).

****

دير القديس أنبا مقار

بتصريح سابق من الأب متى المسكين بالإعلان عن مشروع معونة الأيتام والفقراء (مشروع الملاك ميخائيل)، حيث يعول هذا المشروع منذ عام ٢٠٠٠ أكثر من ألفين من العائلات المُعدمة، يمكن تقديم التقدمات في رقم الحساب الآتي:

00211300000153

دير القديس أنبا مقار

بنك كريدي أجريكول مصر – فرع الميرغني

****